عنوان الكتاب : حماة الإســلام ج ٢

المؤلــف : مصطفى نجيب بك

سنة النشـر : ١٩٣٤

رقم العهـدة : د ٦٨٣٣

الـ ACC : ٩٩٥٢

عدد الصفحات : ١٦٥

رقم الفيلــم : ١٤

وزارة المعارف العمومية

حماة الإسلام

تأليف

المرحوم مصطفى نجيب بك

راجعه وهذّبه

محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش بالوزارة

الجـزء الثانى

حق هذه الطبعة محفوظ للوزارة

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٣٤

فهـــرس

الجزء الثـانى من كتاب حمـاة الإسلام

صفحة

نبذة تاريخية فى انتقال الخلافة للعباسيين	١
أبو مسلم الخراسانى	٨
أبو جعفر المنصور	١٨
المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور	٢٩
هرون الرشيد	٣٦
المأمون...	٤٥
المعتصم بالله	٦٥
المتوكل على الله جعفر...	٧٠
نبذة تاريخية	٧٨
الإمام أبو حنيفة النعمان	٨٣
القاضى أبو يوسف	٨٨
الإمام مالك	٩٤
الإمام محمد بن إدريس الشافعى	٩٩
الإمام أحمد بن حنبل	١٠٤
نبذة تاريخية فى مصر	١٠٧
المعز لدين الله	١١٣
عبد الرحمن بن معاوية	١٢٢
الحكم بن هشام	١٢٨
عبد الرحمن بن الحكم	١٣٢
عبد الرحمن الناصر	١٣٩
الحكم المستنصر بالله	١٤٨
ملوك الطوائف	١٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة تاريخية

قد أتينا فى الجزء الأول من حماة الإسلام ، على ذكر شىء يسير ، من سيرة بعض سادتنا (خلفاء بنى أمية ، و بنى مروان) وخبر بعض قوادها . ورأينا الآن أن ننتقل لسيرة بعض سادتنا (خلفاء بنى العباس) وقوادهم أيضا . وما ذلك عن قلة ولا سآمة ؛ و إنما رغبة فى الانتقال بالقارئ من عهد إلى عهد ، ومن مقصد إلى مقصد ، ولنلم بأعمال حماة الإسلام فى كل صُقع وناحية ، وليكون هذا العمل من جهة الدلالة على الخير الذى فعلوه فذلكة لهم .

إن الدولة الأموية أجل قدرا من أن تنحصر أخبار خلفائها وساستها فى هذا العدد اليسير ، أو يسع أخبارها مثل هذه السوانح ؛ فما هذا وأمثاله إلا غيض من فيض .

وقد حدثتنا النفس أن نجعل بين تراجم سادتنا خلفاء بنى أمية ، وسادتنا (خلفاء بنى العباس) نبذة تاريخية (وهى هذه) نبين فيها انتقال الدولة ، ثم نلحقها بترجمة أبى مسلم الخراسانى ، صاحب الدعوة لبنى العباس . فإن كنا أصبنا فيما فعلنا فلله الحمد ، و إن كنا أخطأنا فلسنا بمعصومين .

قال الله سبحانه وتعالى : "وتلك الأيام نداولها بين الناس" وقال حكيم وقد عزّى بعض من خرجت عنه مملكته : لو بقيت لغيرك ما وصلت إليك .

دالت الدولة للعباسيين ، فإذا هى كبرى الدول ، وأعظمها فى الدهاء والتحيل . ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فأطاعها الصلحاء تدينا ، والباقون رغبة أو رهبة ، واستمرت الخلافة والملك نحوا من ستة قرون ، استقبلت فيها عظائم الأمور ، وطرّت عليها دول كدولة بنى بويه وخلها عضد الدولة ، فنا خسرو — ودولة بنى سلجوق ، وكبشها طُغرِل بك — ودولة خوارزم شاه ، وفيها مثل علاء الدين الذى اشتملت جريدة جنده على أربعمائة ألف مقاتل — ودولة الفاطميين بمصر ، وجندهم لم ير أكثف منه فضلا عن الخوارج ، والجموع الذين لم تبلغ استطاعتهم مناصبة عزة الملك ومعاندته ، وجدع أنفهم الشامخ عن متابعة الاستكبار بأقل الأذى وأقل السخط .

كل هذا لم يقو على إزالة ملكهم ولا محو أثرهم ، بل كان الملك من هؤلاء يجمع ويحشر ، ويقبل بالجند الجرار ، والخميس العظيم ، حتى يصل بغداد ، فإذا وصل التمس الحضور : فإن أذن له قبل الأرض بين يدى الخليفة ، وقصارى متمناه أن يوليه عملا ، أو يعقد له لواء ، أو يخلع عليه خلعة .

كانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أبدا ، حتى إن السلطان (هولاكو) لما فتح بغداد ، وأراد قتل الخليفة (أبى أحمد المستعصم) ألقوا فى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل النظام فى العالم ، فاحتجبت الشمس ، وامتنع القطر .

أتت لها هذه العظمة ، وأصبح لها ذلك الاعتبار فى النفوس بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنه كان يجرى على لفظه الشريف ما معناه : البشارة بدولة هاشمية ، وزعم قوم أنه قال لعمه العباس (رضى الله عنه) : "إنها تكون فى ولدك" .

كانت النفوس متطلعة لهذه الدولة ، ينتظرونها صباح مساء ، يظنون فيها الخير أكثر مما كانوا فيه . فكان فيهم عطف عليها ، وحنان لها .

دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، قامت فيها أسواق العلوم ، ونفقت فيها بضائع الأدب ، وعظمت فيها شعائر الدين ، ودرّت عليها الدنيا بخيرها ، وروعيت فيها الحرمات ، وحصنت الثغور . كانت الدولة مستمسكة بالدين ، كما كان على عهد الخلفاء : يحاسبون أنفسهم ، وينكر بعضهم على بعض إذا أخل بالعدل والمساواة ، ويحكمون بالشريعة ، ويتأدبون بآدابها .

بلغت حضارة الإسلام فى دار السلام مبلغا يندر مثله : فأين التفتّ وجدت جمالا ، وأنى نظرت رأيت مهابة وجلالا : أبهة ملوك ، ودعة زهاد ، ورخاء بال ، وارتقاء حال ، وانغماسا فى طيبات العيش ، وتصرفا واسعا فى التجارة ، وجمع طرائف الدنيا ، وتحرى العدل فى كل ذلك بأحكامه ، وأخذ الرعية بالحلم الواسع والسياسة بالكياسة .

اجتمعت العلماء والأدباء — والأمراء والندماء — بأبواب الخلفاء ولا سيما الرشيد الذى ألبس الدنيا جمالا ، وخلع عليها جلالا — بملكه الذى لم يسمع عن أحد من الملوك .

تسامت فيها الدور والقصور بالبهاء والرفعة ، وبنيت فيها المنازل الرحبة المزخرفة ، والأسواق والمرافق والمكاتب ، ووصل تعداد النفوس ببغداد لمقدار لم يكن فى مدينة من العالم .

قصدتهم الناس ، وطمعت فى مكارمهم الخلق ، حتى صار يضرب بهم المثل فى سعة العطاء ، وكان مع ذلك بيت المال فى عمران ، تشتمل خزائنه على العين والورق ، والأمتعة والكُسا والغلات ، وغير ذلك . والأمة بالغة مبلغها فى العلم والأدب والصناعة .

انتهى العز والرفاهة بأولى الأمر والجاه إلى أقصى غايته ، حتى اتخذت الإبر للجوارى من الذهب ، وصاغوا المسامير التى تدق فى مجالسهم لتعليق المناديل من الذهب ، وكسيت حيطان منازلهم بالوشى ، وتأنقوا فى جميع أدوات الزينة والمباهاة بها كالخيل والسلاح ، والآنية والجواهر ، والغلمان والقيان ، وجميع طيبات الزمان ، حتى ضرب المثل بهم فى الآفاق ، وجلبوا إلى بساتينهم طيبات الزهور من الهند والرياحين من الصين ، واتخذوا مقاعدهم فى حالات غريبة : فتراهم فى الشتاء كِنا كمينا ، وفى الحر ما بين الماء المتدفق غزارة من السقوف والحيطان ، والنابع من الأرض ، والمتفجر من جوانب المكان ، وكل ذلك فى أفواه صور : كصور السباع والثعابين ، وما شابه ذلك . وقد علقت المراوح فى سقوف المكان ، ووضعت الحبال التى تجر بها من الخارج ، فإذا حركت هب النسيم ، فترطبت الأجسام ، ولذ المنام .

لما أراد الله قيام هذه الدولة نما الشر ، وخلقت أسبابه ، وكثر الهرج والمرج ، وفتح بابه ، وثارت الفتن ، واضطرب الحبل ، واختلفت

الكلمة ، فظهر أبو مسلم بدعوة بنى العباس ، واجتمع عليه كل من له فى ذلك رأى من أهل خراسان .

انظر إلى البلاد وما كانت عليه : كان أهل الحجاز قليلين ، وأهل البصرة والكوفة وما حولها منحرفين عن الوحدة فى نظر الناس ؛ لخذلانهم وغدرهم فى سوابق ما جرى منهم ، ولم يبق إلا مصر والشام مع دولة بنى أمية .

ظهر أبو مسلم الخراسانى ، ومعه أصحابه (أصحاب الرايات السود) وحارب جند مروان تحت قيادة نصر بن سيار ، وهزمه .

يعجب الإنسان لهذه القلوب ، كيف سخرها الله لتنفيذ قضائه العادل وإبراز مكنون حكمته فى خلقه ! يقوم أبو مسلم بهذه الجيوش ، يبذلون المهج ، وينفقون الأموال ، ويجبون الخراج ، وينادون باسم إبراهيم الإمام محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وهو فى المسجد لا يفارقه ، وأهل خراسان لا يفرقون بين اسمه وشخصه ، وهو لا يدخل أيضا فى شىء من هذا ، فلا ينفق عليهم ، ولا يعطى أحدهم سلاحا ، وهم يحملون إليه الخراج .

ثم قدر الله أن يقتل هذا الإمام الذى قامت باسمه الدعوة ، كأنما فرغ من عمله ، وكأنما هو لا يصح أن يكون إلا مقدمة لغيره .

خاف أخواه (السفاح والمنصور) وجماعة من أقاربهما ، فهربوا ، وقصدوا الكوفة ، ونزلوا دارا أخلاها لهم أبو سلمة (حفص بن سليمان الخلال) من كبار الشيعة ، فدخلوها مع أتباعهم ، وكتموا سرهم ، واجتمعت الشيعة بهم ، وقويت شوكتهم .

قصد أبو مسلم دار الخلال ، وفيها السفاح والمنصور فقال : أيكم ابن الحارثية ؟ قال المنصور : هذا وأشار إلى السفاح، وكانت أمه حارثية، فسلم عليه بالخلافة ، ثم خرج السفاح ، ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه إلى الجامع، فصلى وصعد المنبر، وأظهر الدعوة وخطب الناس ، وبويع له بالخلافة سنة ١٣٢ هـ .

ثم سلب الله ما كان لمروان (آخر خلفاء بنى أمية) من الصولة والقدرة حتى عصته الجند ، ونبذه قواده ، وكان جيشه فوق مائة ألف ، فلم يغن عنه شيئا ، وتوالى عليه الخذلان ، حتى انهزم ، وهرب ، وقتل فى قرية بوصير من قرى مركز الواسطى بمديرية بنى سويف وهو آخر الخلفاء فى هذه الدولة .

ولا بدّ لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شيء حفظه التاريخ لهذه الخلافة : وهو أن بنى أمية ، وإن كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب ، والعدل فى القضاء ، وحفظ الأمن والراحة (وأنى لنا بمثل تلك الأيام) فإن الفوضى العلمية التى ظهرت فى أواخر دولتهم ، والأحاديث التى وضعت مختلقة على الرسول صلى الله عليه وسلم — فرقت الأمة إلى مذاهب مختلفة : كالخوارج ، والمعتزلة ، والجبرية . وأخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية ، وأبعدتها عن حدها وعهدها ، وقام الملك أخيرا على العصبية ، فانحرفت عن العدالة العامة ، والعلم الدينى ، وهما أقوى أركان الخلافة ، وانتشر التفرق فى البلاد الإسلامية ، ولم يجمع القادة أمر الناس على عقيدة واحدة ، بل تركوهم مع هذا السيل الجارف .

لذلك تقوضت دعائم هذه الدولة ، وانقسمت إلى خلافتين : خلافة عباسية فى دار السلام ، وخلافة أموية فى الأندلس . قام بالأولى الإمام السفاح ، وبالثانية الإمام عبد الرحمن (حفيد الخليفة هشام الأموى) الذى فر من السفاح ، ولجأ إلى قبيلة زناتة (أعظم قبائل إفريقية) . ونحن ذاكرون شيئا من تاريخ خلفائها الذين هم خير خلفاء ، وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم من يعين عليه الله سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين . والله أعلم .

ابو مسلم الخراسانى

هو عبد الرحمن بن مسلم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دعوة بنى العباس ، أو صاحب الدولة العباسية ، أو بأمير آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اختلفوا فى نسبه : فمن قائل إنه عربى ، ومن قائل إنه عجمى ، ومن قائل إنه كردى ، وقد قال هو عن نفسه : كفاك خبرى عن نسبى .

ترعرع أديبا ، ونشأ لبيبا ، وكان نشار إليه فى صغره لفرط ذكائه ووفور عقله .

ولد سنة مائة بأصبهان . وكان أبوه قد أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج ، فحمله إلى الكُوفَة ، وهو ابن سبع سنين ، ثم جمع بينه و بين إبرهيم الإمام ، فقام معه حتى بلغ أشده ، ثم قال له غير اسمك وكنيتك (وكان يكنى أبا إسحاق) فتسمى (بعبد الرحمن وتكنى بأبى مسلم) . زعموا أن الإمام وجد لذلك شيئا فى الجفر ، وتحقق أن الأمر لا يتم على يده ، إلا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها هو بها أعلم وأخبر .

ولعله إذ قدم على الإمام شاهد فيه عقلا وذكاء ودهاء فأعجب به ، فعقله عنده ، حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له فى خراسان .

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم ، وقصرت أعمارهم ؛ فإنه ولد سنة مائة ، والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ، دوخ فيها أهل الأرض ، وكان له يوم قتله المنصور سبع وثلاثون سنة ، فهو كالإسكندر الرومى صاحب الفتوح ، أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب ، أو سيبويه شيخ العربية ، أو أبى تمام أبى الشعراء ، أو إبرهيم النظام أمير علم الكلام وغيرهم مما لا يقطع العقل بجواز أن تكون أعمارهم القصيرة ظروفا لأعمالهم الخطيرة التى دونت عنهم .

كان أبو مسلم جميلا ، قصيرا ، أسمر ، حلوا ، نقى البشرة ، أحور العين ، عريض الجبهة ، حسن اللحية ، وافرها ، طويل الشعر ، طويل الظهر ، قصير الساق ، خافض الصوت ، فصيحا بالعربية والفارسية ، حلو المنطق ! راوية للشعر ، عالما بالأمور ، لم يرضاحكا ولا مازحا إلا فى وقته ولزومه ، ولا يكاد يغضب فى شىء من أحواله ، تأتيه الفتوح العظام ، فلا يظهر عليه أثر السرور ، وتنزل به الحوادث الجسام فلم يرمكتئبا ، و إذا غضب لم يستفزه الغضب ، كثير الغيرة ، شديد البطش ، شجاعا فاتكا ، ذا عقل ورأى ، وحزم وتدبير . كل هذه الخصال الجميلة ، والنعوت الشريفة — هيأت هذا المقدام الهمام لأن تتعلق به دعوة بنى العباس ، ويكون به إقامة دولتهم ، و إبادة دولة بنى أمية .

سئل أبو مسلم ، فقيل له : بم نلت ماأنت فيه من القهر للأعداء ؟ فقال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكتمان ، وحالفت الأحزان

والأشجعان ، وساعدت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتى ، وأدركت نهاية بغيتى .

ومما يدل على علو همته — أنه ورد حال الدعوة (نَيْسَابُور) ليلا على حمار وليس معه آدمى ، فقصد دار (الدهقان) ، فدق عليه الباب ، ففزع أصحابه وخرجوا إليه ، فقال لهم : إن أبا مسلم بالباب يطلب ألف درهم ودابة . فقالوا للدهقان ، فسألهم : فى أى زى وأى عدة هو ؟ فقالوا : وحده فى أدون زى . فسكت ساعة ، ثم أمر له بما طلب . فلما ملك وفتحت نَيْسَابُور قيل له : خذ ما تريد من مال (الدهقان) المجوسى فقال : إن له عند أبى مسلم يدا . ثم أتته هداياه فردها ولم يتعرض بشىء له ولا لإتباعه .

ومن نوادره أنه كان يشتغل عند خراز بالكوفة ، فبينما هو يخرز شيئا رأى الناس يتعادون فقال : ما الذى بهم ؟ قالوا : فيل دخل الكوفة . فقال : وأنى فى دخول فيل الكوفة من العجب ؟ العجب فى : أقلب دولة وأقيم أخرى .

بدأت الدعوة العباسية سنة اثنتين ومائة على ما استقصيناه ، وكان أول ظهورها بخراسان (موطن أبى مسلم) ، وكأنما قارنها فى المولد ليشبا معا وينشآ كذلك .

اختلفوا فى أول من قدم خراسان : فمن قائل : إن ميسرة العبدى وجه رسله بالدعوة من العراق إليها ، ثم وشى بهم عمرو بن بجير بن ورقاء السعدى إلى سعيد عاملها ، فقال : إن ههنا قوما ظهر منهم كلام فى الخلافة

وأعلن بهم فسألوهم ، فقالوا : نحن من التجار وإن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا . وجاءت أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم .

ومن قائل : إن أول من دخل خُرَاسَان الدعاة الذين وجههم (بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمة ، وأبو محمد الصادق وغيرهم سنة سبع ومائة ، ومن قائل : إنهم دعاة (محمد بن على بن عبد الله بن عباس) ، وفيهم زياد أبو محمد مولى هَمَذَان . وقد اتفق أصحاب الروايتين على أن ذلك وقع فى هذه السنة ، وفى ولاية أسد بن عبد الله القسرى على خراسان .

أساء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية ، وأطعموا الطعام على حب بنى العباس . وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس ، حتى بلغ أمرهم أسدا ، فأحضر زيادا ، وقال : ما الذى بلغنى عنك ؟ قال : الباطل ، إنما قدمت فى تجارة وفرقت مالى على الناس ، فإذا اجتمع خرجت ، فأمره بالخروج فلم يخرج ، وعاد إلى أمره فخاف منه أسد ، وأحضره وقتله بالسيف مع عشرة من أصحابه . قالوا : ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال : الحمد لله الذى صدّق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل ثم وجه (بكير بن ماهان) سنة ثمان عشرة ومائة عمار بن يزيد واليا على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وغير اسمه وتسمى (بخداش) ، ودعا إلى (محمد بن عبد الله بن عباس) فسارع إليه القوم وأطاعوه ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعا بعضهم إلى ما يشين وقال : إن ذلك بأمر محمد بن على فظفر به أسد والى خراسان ، وسمل عينيه وقطع لسانه فبلغ ذلك محمد بن على فترك مكاتبتهم ومراسلتهم ، فبعثوا إليه سليمان بن كثير يعلمه أمرهم ، فصرفه إلى خراسان ، وأرسل معه كتابا مختوما ، ففضوه فلم يروا فيه إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعظم عليهم ذلك ، وعلموا أنهم خالفوه ، وبعث إلى النقباء أيضا بعصى مضببة بعضها بالحديد وبعضها

بالنحاس . وأخذ كل واحد من النقباء عصا وهى إشارة لما كانوا عليه من مخالفته ، و رجوعهم إلى طاعته[1] .

ثم أجمعوا أمرهم ، وقاموا بالدعوة ، وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية ، وهاجت عليهم الفتنة ، وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس ، وأخذ ما كان بعمان من الأموال ، وأقبل إلى دمشق يلعن الوليد و يرميه بالكفر .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة ، وهى أول سنى الأعمال الجسيمة ، توجه فيها سليمان بن كثير ، ومعه أبو مسلم و جماعة من الشيعة إلى مكة والتقوا بإبرهيم الإمام ، ودفعوا إليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع ، فكتب كتابا لأبى مسلم يأمره فيه بالعمل ، و وجهه إلى خراسان ، وعمره إذ ذاك نحو من أربع وعشرين سنة . قال فى كتابه للأصحاب والشيعة :

أما بعد فإنى قد أمّرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا ، أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك . فكبر على شيوخ الشيعة قبول إمرته لصغر سنه ، وخرج بعضهم إلى مكة ليلاقوا الإمام فإذا به مجمع رأيه فى أبى مسلم وألزمهم طاعته فأطاعوه . ثم كتب إلى أبى مسلم : إنك رجل منا آل البيت ، احفظ وصيتى ، انظر هذا الحى من اليمن ، فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم ؛ فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة فى أمرهم . وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فيه ، و إن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، ولا

(١) العصى المضببة بالنحاس أو الحديد هى علامة النقيب إلى الآن فى طرق الصوفية ولعلها من هنا أخذت .

تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه ، و إذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى .

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام ، ولم يبق قلبا يعطف على بنى أمية ، ولا بلدا إلا أوحشه منهم ، فغير النيات ، و بدل الضمائر والأفكار — بما بثه وأظهره من حجج الهاشمية وما كشف من معايب الأمويين ، فلم تلبث خراسان حتى لزمت الطاعة وتنادت بالدعوة لبنى العباس ، وجاءت من كل الأرجاء والمواقع .

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء ، وبث الدعاة و برز للغالبة والمباراة ، فأزال ملك أعدائه عن مستقره ، وثبت ملك أوليائه فى نصابه ، فشفى الله صدورا وأدرك أبو مسلم بسيفه ثارا : فتح البلاد ، وأقام أصل الدولة ، وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها ، وقام مقام أصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك ، ودان بالطاعة مع أصحابه يقتلون فيها و يموتون عليها .

أصحابه الخراسانية أصحاب الرايات السود ، كانوا أصحاب صدور سليمة ، وقلوب باسلة لم تفسدها الأهواء ، ولم تخامرها الأدواء ، ولم تعتقبها البدع ، وهم خير جند لخير قائد ، فكأنهم لم يخلقوا إلا لقلب الدول وتأييد السلطان .

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة ، فكتب إليه إبرهيم الإمام ، يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس ، فسار نحوه فى النصف من جمادى الآخرة

مع النقباء . فلما وصلوا قُومَس[1] وافاه كتاب الإمام يقول له فيه : إنى قد بعثت إليك براية النصر ، فارجع من حيث لقيك كتابى ، ووجه إلىّ قطبة بما معك يوافينى . فانصرف أبو مسلم إلى خراسان ، وذهب قطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض ، ونزل أبو مسلم قرية من قرى مرو ، يقال لها مفنون ولبس السواد ، وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ، ودارت رحى الحرب والقتال ، وانتقل أمرهم من القول إلى الفعل ، وأخذت البيعة إلى الإمام علانية ، ثم عقد اللواء الذى بعثه الإمام إليه والذى يدعى (الظل) والراية التى تدعى (السحاب) ، وأمر بإشعال النيران للشيعة ، وهى علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاما فقالوا : (الظل والسحاب) يعنى أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظل — كذلك لا تخلو من خليفة عباسى إلى آخر الدهر .

ثم قدمت الدعاة على أبى مسلم من كل فج وناحية ، وأتته الرجال راجلين وركبانا يكبرون من ناحيتهم فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى ، فتربص بهم مكانه ، وكان عيد الفطر فنصبوا منبرا بالعسكر[2] ، وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به و بالشيعة ، و يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ، وكان بنو أمية يبتدئون بالخطبة قبل الصلاة و بالأذان والإقامة مع تغيير كبير فى عدد التكبيرات واختلاف فى كونها تباعا ، ففعل ثم انصرفوا بعد الصلاة إلى طعام فأكلوه ، وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتابا قال فيه :

(١) قومس بالضم وفتح الميم صقع كبير بين خراسان و بلاد الجبل .

(٢) عن ياقوت .

إلى نصر :

أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه عيّر أقواما فى القرآن فقال : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا " .

فتعاظم نصرٌ الكتابَ ، وفقأ له إحدى عينيه ، وقال : هذا كتاب ما له جواب .

ثم وجه أبو مسلم أشياعه : مثل مالك بن الهيثم الخزاعى ، وحازم بن خزيمة والتقوا بعسكر بنى أمية وجيوشها ، وذهب غير أولئك إلى جهة أخرى ، فشرّدوهم عن المواقع والأماكن ، وقتل من قتل منهم : كشيبان الخارجى من أكابر القواد ، والكرمانى وابنيه . ودخل أبو مسلم (مَرْو) وصفت له على يد أبى منصور طلحة بن زريق أحد النقباء ، وكان عالما ملحنا بالحجة ، وهو أحد الاثنى عشر نقيبا المنتخبين من السبعين الذين استجابوا لرسول محمد بن على فى أول الأمر .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة التى بويع فيها أبو العباس عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الملقب بالسفاح بسبب قبض مروان الحمار على إبرهيم بن محمد الإمام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) ، وكان الإمام قد نعى نفسه إلى أهل بيته قبل ذلك ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد والسمع والطاعة له ، وأوصى إلى أبى العباس الملقب بالسفاح بالخلافة ، فلما

وقع ذلك ساروا فقدموا الكوفة مع شيعتهم فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم (كما تقدم الكلام فى النبذة التاريخية) وجاء القواد وسلموا عليه بالخلافة ، ثم لبسوا السلاح، وطلبوا خروجه واصطفوا له ، وأتوا بالدواب فركب برذونا أبلق ودخلوا دار الإمارة ، ثم خرج إلى المسجد ، فخطب وصلى بالناس ، ثم وافت الأخبار بهزيمة مروان (بالزَّاب) ، ثم التقى به عبد الله بن على عم السفاح فهزمه الهزيمة الكبرى وفر إلى مصر وقتل .

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبى العباس السفاح ، فأقر أبا مسلم على خراسان، ولا زال بها لا يفارقها إلى سنة ست وثلاثين ومائة، ثم كتب إليه أبومسلم يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، فأذن له ووافق ذلك طلبا من أبى جعفر المنصور أيضا بالحج ، فأذن له فلما كان فى الطريق حمل معه ذكر أبى جعفر ؛ لأن أبامسلم كان يكسو الأعراب و يصلح الآبار والطريق ، وكانت الذكرى له . ولما صدر عن الموسم تقدم فى الطريق ، ثم أتاه خبر موت السفاح ، فكتب إلى أبى جعفر يعزيه ، ولم يهنئه بالخلافة . كل هذا وأمثاله جعل أبا مسلم فى نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقبا ، وقد غلب عليه سوء الظن ، حتى رجح فيه قبح الباطن على حسن الظاهر ، وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن ، فأمضى فيه حكمه وقتله بعد أن استدعاه وأدناه ، وجالسه مجلسا كثر فيه الأخذ والرد كما سيأتى ذلك فى ترجمته إن شاء الله .

موعظة

قال الإمام الفخرى : لما قدّر الله انتقال الملك إلى بنى العباس ، هيأ لهم جميع الأسباب : فكان إبرهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس بالحجاز أو بالشام جالسا على مصلاة ، مشغولا بنفسه وعبادته ، ومصالح عياله ، ليس عنده من الدنيا طائل ، وأهل خراسان يقاتلون عنه و يبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لا يعرفه ، ولا يفرق بين اسمه وشخصه . وانظر إلى إبراهيم الإمام وهو بتلك الحال من الانقطاع بداره ، واعتزال الدنيا وهو بالحجاز أو بالشام وله مثل هذا الجند العظيم فى خراسان، يبذلون نفوسهم دونه ، لا ينفق عليهم مالا ، ولا يعطى أحدهم دابة ولا سلاحا ، بل هم يجبون إليه الأموال ، ويحملون إليه الخراج فى كل سنة .

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان ، وانقراض ملك بنى أمية — كان مروان خليفة مبايعا ، ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه ، وأمره يضعف ، وحبله يضطرب ، فما زال يضمحل حتى هزم وقتل وأكلت لسانه هرة .

فتعالى الله .

"قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب" .

أبو جعفر المنصور

نستفتح الخلافة العباسية باسم هذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لأسباب : منها أن جماعة المؤرخين قالوا : إن فى بنى العباس فاتحة وواسطة وخاتمة . والفاتحة عندهم المنصور ، والواسطة المأمون ، والخاتمة المعتضد . ومنها أن مدة السفاح لم تطل ، ومنها أن هذا الخليفة أحق بالتقديم ؛ لأنه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين العلمية والحربية .

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . ولد فى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين ، وأدرك جده ، ولم يرو عنه ، وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار . وبويع له بالخلافة فى شهر ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة . وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة بِبِئْرِ مَيْمُون ، وهو محرم ، ودفن بمقبرة المَعْلَاة والمسافة بينهما ثلاثة أميال ، فمدة خلافته اثنتان وعشرون سنة ومدة عمره ثلاث وستون سنة .

كان أسمر نحيفا خفيف العارضين ، وقورا كامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيها فصيحا بليغا مفوّها خليقا بالإمارة وجبروتها ، مدبرا لأمور المملكة .

قسم زمانه وساعاته قسمة حكيم : فكان صدر نهاره للأمر والنهى ، والولايات والعزل ، وشحن الثغور والأطراف ، وتأمين السبل ، والنظر

فى الخراج والنفقات ومصلحة الرعية والتلطف بسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه ، فإذا مضى الثلث الثانى قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ، فيخرج للناس فيصلى ثم يدخل إيوانه .

وكان لحبه العدل واستقامة أمور المملكة يستقل ذلك ، وقد سمع منه أنه قال : ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر : قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، وصاحب خراج لا يظلم الرعية . ثم عض على أصبعه ، وتأوه فقيل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلىّ خبر هؤلاء على الصحة .

نمت فى عصره القوة العلمية ؛ فقد كان فيه كثير من الأئمة الأجلاء : منهم الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك بن أنس ، وكثر فيه تدوين علماء المسلمين العلوم كالحديث والتفسير : فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والأوزاعى بالشام ، وابن أبى عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن ، وسفيان الثورى بمكة وصنف ابن إسحاق المغازى ، وابتدئ تدوين العلم وتبويبه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وكان الأئمة فى هذا العصر يعلمون العلوم إملاء من حفظهم .

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية إلى العربية كإقليدس وكليلة ودمنة وكان هو أعلم الناس بالحديث والأنساب مشهورا بطلبهما . وكان بليغا لسنا فصيحا : أخرج الأصمعى وغيره أنه

صعد المنبر فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكر من أنت فى ذكره ، فقال : مرحبا مرحبا لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، والموعظة منا بدأت ، ومن عندنا خرجت ، وأنت ياقائلها فأحلف بالله ما الله أردت بها ، ولكن أن يقال قام فقال فعوقب فصبر وأهون بقائلها لو هممتُ ، واهتبلها إذ عفوت . إياك و إياكم معشر المسلمين وأختها . ثم عاد إلى خطبته فقال : (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) فكأنما يقرؤها من قرطاس .

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوى الآراء التامة الصائبة ، وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم ، وله من التدبيرات السديدة ما يستحق أن يدون ؛ ليحتذى و يؤخذ منه و يقاس عليه .

ومن أغرب ما يؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته أنه لما أدركته الوفاة قال لابنه المهدى : يا بنى ، إن فى بيت المال ما لا أخذته العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديبا لهم وزجرا ، ولقد أفردت كل شىء منه وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فربما كان منهم مايوجب رده إليهم .

كان أعلم الناس بضبط أحوال الممالك ، وترتيب القواعد ، و إقامة ناموس كل شىء : غالب الدهر والأيام حتى كف عاديهما عنه وتوطدت أركان الممالك له ، وعظمت هيبته فى النفوس ، ولولا بأسه وشدته ما دانت الأمصار إليه بعيدها وقريبها ، وأصبحت خلافته قويمة البنيان

وآل مروان لم تبل رممهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، والناس قد رأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء .

كان حازما لا يعرف اللهو ، ولا ما يشبه اللهو ، ولم ير فى داره ذلك . قال سلامة الأبرش : كنت أخدم المنصور داخلا ، وكان من أحسن الناس خلقا فى الخلوة ، بل من أشد الناس احتمالا لما يكون فيها من عبث الصبيان ، فإذا خرج إلى المجلس العام ارتدّ لونه ، وكان مع ما وهبه الله من السؤدد والمجد فقير النفس ، فكان يرقع ثوبه ، و يلبس القميص الخشن .

كان شجاعا صارما مقداما لا يرهب الموت ، يقظا لا يفلت عدوه ، قال يزيد بن عمر بن هبيرة : ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكر ، ولا أنكر ، ولا أشد تيقظا من المنصور ، حاصرنى تسعة شهور ، ومعى فرسان العرب فجهدنا الجهد الجهيد فلم ننل من جنده شيئا ، وحصرت وما فى رأسى شعرة بيضاء ، وانقضى الحصار وليس فيها سوداء .

يعد مخاطرا من فرط شجاعته ، حتى قيل : إنه أخطأ فى ثلاث : قتل أبى مسلم وهو فى جماعة قليلة ، وحين خرج إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، و يوم الراوندية ولو أصابه سهم لدكت المملكة ، وغدا الكل أثرا بعد عين . فأما قتله لأبى مسلم وخروجه إلى الشام فقد يتفق ذلك لبعض الأنام ولكن المعجز يوم الراوندية :

وصفوة الخبر أن جماعة من أهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على رأى أبى مسلم أحاطوا بقصره ، وقالوا : أنت إلهنا فغضب وقال : يدخلهم الله النار فى طاعتنا ولا يدخلهم الجنة فى معصيتنا وحبس رؤساءهم ، فعمدوا إلى نعش فارغ وحملوه كأن به جنازة ، وقصدوا

السجن، فألقوه أمامه وكسروه وأخرجوا من فيه، وقصدوا القصر، فخرج بنفسه ماشيا [1] وصاحت الناس وغلقت أبواب المدينة ، وما زال حتى جىء له بدابة فركبها، ثم جاء معن بن زائدة وأخذ بلجامها، وصار يقاتل قتالا ما رئى قبله ، حتى طفئت الفتنة .

فعن أى ملك أو سلطان يؤثر ذلك ؟ لا ندرى . على أن هذه الأمور طالما كانت سببا لضياع البلاد . تقوم الثورة المدبرة، فتنعقد يد الأمير عن التصرف فيها فتتسع (ومعظم النار من مستصغر الشرر) فضلا عن أن تلم بطرف أجنبى ، فلا تلبث المدينة أو المملكة إلا وقد أصبحت مغنما للعدو كما رأينا ذلك .

وقد كانت هذه الواقعة سببا لبنائه بَغْدَاد ؛ لأنه كره الإقامة بِالْهَاشِمِيَّة فبناها بعد ما أجمعت جماعة الحكماء على فضل مكانها : دجلة والفرات محيطان بها ، والميرة تأتى إليها فى دِجْلَة من ديار بكر ، ومن البحر والهند والصين ، وفى الفرات من الرَّقَّة والشام وخراسان و بلاد العجم ، متوسطة بين الْبَصْرَة والكوفة وَوَاسِط والْمَوْصِل والسَّوَاد ، والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل، وهى مدينة مباركة قالوا : إنها لم يمت فيها خليفة .

ابتدأ فيها سنة خمس وأربعين ومائة، وأتمها سنة تسع وأربعين ومائة ، وجعلها شبه دائرة وقصره فى مركزها ، قالوا : ليكون قربه من جميع الناس واحدا ، فصرف عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم ؛ و بلغ من دقة أمره فى حسابها أنه تقاضى البواق لغاية خمسة عشر درهما (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره) .

ثم بنى الرُّصَافَة وشيّدها .

(١) لأنه لم يكن فى القصر دابة . ومن ذلك اليوم ربط فرس النوبة بدور الخلفاء .

أحاطت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه ، فافنت الفرسان ، وقتلت الأنصار ، وغلت يد الخلافة ، وأذاقت الأمة بأسها وأتلفت الحصون والملاجئ ، و بددت المعاقل .

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جراثيم الفساد إلى أن هجم بالعقوبة ، وتناسى العفو ، فكان جبروت خلافته شديدا ، ولم تفتح فى مدة خلافته إلا طبرستان ؛ لأن الحروب مع الخوارج غلبت عليه .

دخل فى طاعته ممالك الإسلام التى افتتحها الصحابة (رضى الله عنهم) و بنو أمية ، إلا الأندلس بقيت بيد أهلها، يتقاتلون على الإمارة حتى قدم عليهم عبد الرحمن الداخل فأصبح للإسلام دولتان تتنازعان : الدولة العباسية فى الشرق ببغداد ، والأموية فى الغرب بالأندلس .

ومن فضائل هذا الخليفة أنه وسع المسجد الحرام مما يلى دار الندوة ، وحصل بينه و بين ملك الروم الفداء ، واستنقذ أسرى المسلمين وحج حجة أغدق فيها على الناس ، حتى سميت عام الخصب ، ووقع فيها بينه و بين رجل من الحديث ما فيه مزدجر ، ومن العظة ما لا يتصور وقوعه ، والعجب أن مثل أبى جعفر يتقبله منه مع جبروته، ولا تأخذه أنفة الملك، و إنا ذاكروه ولو طال ؛ فإنه مما يطرز بالدرر واللآلئ :

قالوا : حج أبو جعفر ، وكان يخرج إلى الطواف فى آخر الليل ، يطوف و يصلى لا يعلم به أحد، فخرج ذات ليلة سحرا ، و بينا هو يطوف سمع من يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم، فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه، ثم خرج

ودعاه وسأله عن الذى سمعه فقال له : إن أمّنتنى على نفسى أنبئك ، فأمنه وأدناه وسأله فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله ، وما ظهر من البغى والفساد فى الأرض — إنما هو أنت . قال : ويحك كيف يدخلنى الطمع وكل ما أريده فى قبضتى ! قال : وهل دخل على أحد من الطمع ما دخل عليك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك و بينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وصحبة معهم السلاح ، واتخذت وزراء وأعوانا بفجرة ، إن نسيت لم يذكّروك ، و إن أحسنت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والرجال والسلاح ، وأمرت ألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بصلة المظلوم والملهوف والجائع والعارى ، وما أحد إلا وله فى الأموال حق ، فلما رآك الذين استخلصتهم وجعلتهم يشرفون على رعيتك ، وأمرت ألا يغيبوا عنك — تجبى المال ولا تقسمه — قالوا : قد خان الله فما بالنا لا نخونه ؟ وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك إلا ما أرادوا ، لا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه ، حتى تسقط منزلته . فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم ، وصانعهم عمالك بالهدايا والأموال ؛ ليقووا بها على الظلم . ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم ، وامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك ، وأنت غافل . و إن جاء متكلم حيل بينه و بين الدخول إليك ، و إن أرادوا رفع قصة إليك وجدوك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا

صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن صرخ ضرب ، وأنت تنظر ولا تنكر ، ولا تغير فما بقاء الإسلام وأهله على هذا !

كان بنو أمية لا ينتهى إليهم مظلوم إلا رفعت مظلمته ، ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الأرض ، حتى يبلغ باب سلطانهم ، فينادى يا أهل الإسلام فيبتدرونه ، فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم ، فينتصف له . وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين ، وبها ملك فقدمتها مرة ، وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى ، فقال له وزيره : مالك تبكى لا بكت عيناك ! فقال : أما أنا فلست أبكى على المصيبة إذ نزلت بى ، ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب أبكى . ولئن ذهب سمعى إن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس ألا يلبس ثوبا أحمر إلا المظلوم . فكان يركب الفيل فى طرفى النهار ، لعله يرى مظلوما فينصفه .

هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى ، قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وأنت مؤمن بالله عز وجل ، وابن عم نبيه ، ألا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحدة من ثلاث : إن قلت أجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هذا الطفل الصغير وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، ولا يزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذى يعطى ولكن الله تعالى يعطى . و إن قلت أجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبرا فيمن كان قبلك ، ولم يغن عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من السلاح والكراع ، وما ضرك وولد أبيك عبد الله بن عباس ما كنتم فيه من الضعف حين أراد الله عز وجل بكم ما أراد . و إن قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من

الغـاية التى أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح . يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشـد من القتل ؟ قال : لا. قال: فكيف تصنع بالمـالك الذى خوّلك ما أنت فيه من ملك الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم ، وهو الذى يرى منك ما خفى فيك ، فما تقول إذا انتزع ملك الموت الدنيـا من يدك ، ودعاك إلى الحساب ، هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئا؟ !فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ! ثم قال : ليتنى لم أخلق ولم أك شيئا . كيف احتيالى فيما خوّلت ولم أر من الناس إلا خائنا . فقال : يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلمـاء . قال : فروا منى . قال : هربوا مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقك ، ولكن افتح الأبواب ، وسهل الحجـاب ، وانتصر للمظلوم ، وامنعه ، وخذ الشىء ممـا حل وطاب ، واقسمه بالعـدل وأنا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك ، فيعاونك على صـلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور : اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل .

ولا عجب من سكوت أبى جعفر وإصغائه لمقـال الرجل ، وطلبه التوفيق فى العمل بمـا قال ؛ لأنه يتحرى الحق من الباطل ، ويعلم صحـة ما يقال له ، وينزل إليه وهو متسنم المعالى ، ويتضاءل أمامه كما سمعت .

أكبر فخر للغربى على الشرقى الآن — أن يفخر بأن فى أهل الغرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق ، وقولة الصدق ، وأن هؤلاء الملوك لا يصدفون عن النصيحة ، ولا يأنفون منها ما دامت عونا لهم على

طرق الحق واكتساب الخير ، ولكن كل الذى سمعناه عنهم دون هـذا الموقف الذى ذهبت فيه معانى الخـلافة من القهر والقوة والقـدرة ، واستمعت فيه النصيحة بما يجب لها من الخضوع والخشوع .

وأعجب من هـذا ما أخرجه عبد الله بن صالح قال : كتب المنصـور إلى سوار بن عبد الله قاضى البصرة بأن ينظر فى الأرض التى تخاصم فيهـا فلان القائد وفلان التاجر وأن يدفعها إلى القائد فامتنع القاضى، وقال: إنها من حق التاجر ، وكتب للمنصور بذلك . فكتب إليـه : والله الذى لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القـائد فكتب إليه سوار يقول : والله الذى لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق . فلما جاءه الكتاب قال : ملأتها والله عدلا ، وصارت قضاتى تردنى إلى الحق .

لو أن أبا جعفر لم يبذل ثمين وقته فى محاربة الخارجين عليـه ، وكانت الحروب التى باشرها فتوحا فى بلاد أجنبية — لكان زمنه يعد من أكبر الأزمان فى الفتوح والأعمال الحربية ، كما عد أكبر زمن فى الفتح العلمى والتقدم فى المعارف . ولكن قدّر الله أن يكون بأسنا بيننا فى تلك المدّة كما قدمنا ، وذلك من المنازعة على الملك ، وسمو الآمال إليه ، وعدم دفع الخارجين عليه إلا بالقوة الغالبة أو ينقرضوا .

كانت خزائن أبى جعفر ملأى بأنواع الأموال ، وجيوشـه على قدم الاستعداد ، ولولا ذلك ما تمت له الخلافة. وناهيك بوصيته للمهدى وقوله فيها : إنى قد جمعت لك من الأموال ما يكفيك لأرزاق الجند، والنفقات على اختلافها عشر سنين فاحتفظ بها ؛ فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا . وأوصيك بأهل بيتك خيرا ؛ فإن عزك عزهم . وانظر مواليك ؛

فإنهم مادتك لشدّتك. و إياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة. ولا تتجاوز ما أمر الله به ، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، ووكل بهم عينا غير نائمة ، ونفسا غير لاهية ، ولا تنم ؛ فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ .

المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور

هو المهدى أبوعبد الله محمد بن المنصور، ولد سنة ست وعشرين ومائة، و بويع له بالخلافة فى سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون) كما تقدم فى ترجمته فلما وصل الخبر إليه ببغداد خطب الناس فقال : .

إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب ، وأمر فأطاع (واغرورقت عيناه !) فقال : قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيما! وقلدت جسيما ! فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعين على خلافة المسلمين . أيها الناس ، أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية ، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم ، وطوى الإصر عنكم ، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدما ذلك . والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والإحسان عليكم .

يرى المعن فى معانى هذه الخطبة شيئا كثيرا من المنافع والمقاصد الخيرية : أظهرت تأثره بالفجيعة ، وأبانت أن خلاله خلال حنو وانعطاف ، وأن ملكوت الخلافة لم ينسه حق الأبوة، ورأينا غير ذلك فى غيره ممن لا تذكر نعمتهم فى جانبه، وما أسوأ العقوق والعياذ بالله !

نقب عن أحسن ما توصف به الرعية، وطلب تحقيقه من الأمة والملة، فقال : أسروا كما تعلنون ؛ لأن الأمة أقبح ما تكون وفى صدرها دخل سواء أكانت تسره للأفراد أم لأولياء أمورها .

طلب منهم خفض الجناح ، وقرنه إلى نشر المعدلة فيهم وطى الإصر عنهم . وما أجل ذلك فى معانى الحكم بالعدل والملك بالحق !

حكم على نفسه بأن يفنى عمره بين الإحسان والعقوبة . وكذلك النفوس الكاملة ، تتقلب رعاياها بين رحموتها وجبروتها ؛ لكيلا تكون سكرا فتؤكل ، أو حنظلا فترمى :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف فى موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعى نفسه ؛ فقد وصاه عند وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء . فلم يدع فيها شيئا من الخير يمكن الإحاطة به إلا تقدم إليه فيه ، وأوصاه بخصال جمله بها ، واستخلف الله عليه .

تولى الخلافة مستأنسا بوصية والده هذه ، متدربا خليقا بالإمارة ؛ لأن الخليفة المنصور روضه بما ولاه قبلها من الأعمال ، مذ شب وتأدب وجالس العلماء ، وبلغ مبلغ الكمال .

أمّره على طبرستان وما والاها ، فباشر أعمالها حتى برهن على أهليته . ثم عهد إليه بالخلافة بعد ذلك ، فكان العهد إليه عن خبرة ، وحقيقة نظر فى مصالح الأمة . وكأن المنصور بترويضه ولده ، وولى عهده على أمورها وأعمالها — نظر لمصالح هذه الأمة فى مماته نظره لها فى حياته . وحبذا الخلفاء .

روى المهدى الحديث عن أبيه ، وعن مبارك بن فضالة ، وحدث عنه يحيى بن حمزة ، وجعفر بن سليمان الضبعى وغيرهما . قال الذهبى : وما علمت فيه جرحا ولا تعديلا .

كان المهدى جوادا ممدوحا ، محببا إلى الرعية حسن الاعتقاد . قال له يوما (يعقوب) وزيره فى أمر أراده : هذا والله السرف . فقال المهدى : ويحك ! يايعقوب ، إنما يحسن السرف بأهل الشرف ؛ ليعلم المكثر من المقل .

كان من أوائل فعله فى خلافته تتبع الزنادقة ، والقائلين بالتناسخ من أهل خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه ، فحاربهم ثم أراد أن يكون دليله فى إذلالهم دليل بحث وتنقيب ، وحجته فى إلخامهم حجة برهان واستنباط لا حجة غلبة وصولة ، فأمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على مسائلهم فى الزندقة والإلحاد ، وما زال بهم حتى أفناهم وطهر الأرض منهم .

وفى سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ، ثم من بعده لهرون الرشيد ولديه .

وفى سنة ستين حج بالناس ، وقسم مالا عظيما فى مصارف الخير ، ونقل خمسمائة من سلالة الأنصار إلى العراق جعلهم فى حرسه ، وأقطع لهم الأرزاق .

حمل إليه الثلج وهو فى مكة . وهذا مما لم يتهيأ لخليفة قبله قط . وما ذلك إلا من انتظام البريد ، وأمان الطريق ، وسلامة الوارد والمتردد .

عمر الطريق إلى مكة ، وبنى به قصورا أوسع من قصور المنصور وجدد الأميال ، وحفر الآبار ، وأصبحت الطريق آمنة صالحة إلى بيت الله الحرام ومقام نبيه عليه السلام ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها

منهل ، وسير البريد من العراق إلى الحجاز ، ومن اليمن إلى مكة وغيرها وخص له إبلا و بغالا لا تحصى ، وهو مما لم يتفق لغيره أيضا .

أمر بترك المقاصير التى فى جوامع الإسلام ، وقصر المنابر ، وصيرها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووسع المسجد الحرام وأمر بالزيادة الكبرى فيه ، وأدخل فى ذلك دورا كثيرة ، ولم يزل البناء فيه إلى وفاته .

ثم بدأ فى الفتوح ببلاد الروم فكثرت الفتوحات على يديه ، ونصره الله وزاد فى غنيمته : فمنها أنه فى سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم و جمع الأجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وسار مستصحبا ولده هارون ، و بعد أن عبر الفرات بعثه للغزو ، فحاصر البلاد ، وافتتحها ، وأثخن فى الزنادقة .

ثم سير ابنه هارون فى سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم ، فأوغل فى بلادهم ، وهزمهم ، و جمع إليه أموالا كثيرة ، وسار حتى بلغ القُسْطَنْطِينِيَّة ، وكان على الروم يومئذ غسطة (زوجة أليوك) كافلة لابنها منه صغيرا ، فجرى الصلح على الفدية ، وأن تقام له الأدلاء ، والأسواق فى الطريق ، ونال قصده من ذلك .

كان عادلا محبا للعدل ، فإذا جلس للظالم قال : أدخلوا علىّ القضاة فلو لم يكن ردى للظالم إلا لحياء منهم لكفى .

بلغ من تقواه ما حدث به (الحسن الوصيف) قال : أصابتنا ريح شديدة فى أيام المهدى ، حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر ، فخرجت أطلب

المهدى فوجدته واضعا خده على الأرض وهو يقول : اللهم احفظ عهدا فى أمته ! اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ! اللهم إن كنت آخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك ! قال : فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى انكشفت الريح ، وزال عنا ما كنا فيه .

كان سمحا جميلا . قال الربيع : رأيته يصلى فى بهو له فى ليلة مقمرة فما أدرى أهو أحسن ، أم البهو ، أم القمر ، أم ثيابه ؟ فقرأ : " فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا أرحامكم " قال : فأتم صلاته ثم التفت إلىّ وقال : (يا ربيع) قلت : (لبيك) ، قال : (موسى) فقلت فى نفسى : من هو موسى؟ أموسى ابنه ، أم موسى بن جعفر؟ وكان محبوسا عندى . فجعلت أفكر ثم غلب علىّ أنه موسى بن جعفر ، فأحضرته ثم قال له : ياموسى ، إنى قرأت هذه الآية (وقرأها) فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج علىّ وتؤذى بخروجك جماعة المسلمين ، حتى أخليك ، فوثق له فخلاه .

و يحق للقارئ لهذا الخبر أن يحاكى الربيع فى مقاله و يجاريه ، فيقول لا أدرى : قراءته كلام الله بهذا الإمعان والتدبر أحسن ، أم العلم به فى صلة الرحم ، أم العفو عن المسىء ، أم مخافة الله !

كان عصره عصر خير و بركة : جمع من الزهاد إبرهيم بن أدهم ، وداود الطائى ، ومن الأعلام : الخليل بن أحمد الفراهيدى صاحب العروض ، وسفيان الثورى ، و بشار بن برد أول شعراء المحدثين .

كان مثالا للسماحة ، وقدوة فى مكارم الأخلاق . قالوا كان يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها ، فأقيمت الصلاة

يوما فقال أعرابى : لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك ، فأمر الناس بانتظاره ، ودخل المحراب ووقف إلى أن قيل جاء الرجل فكبر وصلى .

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبى صلى الله عليه وسلم أنه أول من قرأ فى الخطبة : " إن الله وملائكته يصلون على النبى " الآية . قال الأصمعى سمعت المهدى على منبر البصرة يقول : إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته ، وقرأ الآية .

كان يعس بنفسه حال الأمة والملة . فاتفق له ليلة أنه سمع أعرابية تقول : قومى مقترون ، نبت عنهم العيون ، فدحتهم الديون ، غصتهم السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثرت عيالهم ، أبناء سبيل وأنضاء طريق . وصية الله ووصية الرسول فهل من آمر لى بخير كلأه الله فى سفره ، وخلفه فى أهله فوصلها وأمر من يوصلها لحيها .

وأسند إليه عن مهدى بن سابق قال : صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

قل للخليفة حاتم لك خائن ... نخف الإله وأعفنا من حاتم

إن العفيف إذا استعان بخائن ... كان العفيف شريكه فى المأثم

فاستوقف كل عامل يدعى حاتما حتى عرف له صاحب الخيانة وتقاضاه.

واعترضته امرأة فقالت : ياعصبة رسول الله، انظروا فى حاجتى فقال : اقضوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم فإنى ما سمعت أحدا خاطبنى بهذا .

ومن غرر أقواله قوله : ما توسل إلىّ أحد بوسيلة هى أقرب من تذكيرى يدا سلفت منى إليه أتبعها أختها ، وأحسن ربها ؛ فإن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل .

هذه الترجمة مثال تقاس عليه نتيجة حسن تربية أولياء العهد ، وترويضهم على العمل فى أيام أسلافهم ؛ ليتحقق منهم النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ، متى أصبحوا أئمة عليها ، ووجب على جميع الرعية طاعتهم .

إن ولى العهد إذا أصبح ليس بينه و بين تحقيق أمنيته إلا موت العاهد له كان ذلك شؤما عليه وعلى الأمة وأى شؤم ؛ فإنه يبطئ بنفسه عن كثير من خصال الخير ، ولا يوجد له إحساس يدفعه لحب التعلم ، ولا يكلفه الوصول لما فيه مرضاة الأمة ، بخلاف ما إذا سلم له النظر فى أمر نفسه ، وأمور المسلمين على نظر من الخليفة والناس ، ودفع على الأمور ورأى المنشط منها والمكره ، وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى سيصبح من أجله أمير المؤمنين ، كان ذلك من أجل دواعى ترقى نفسه فى مراقى الكمال ، ووقعت المصلحة فى اجتماع الناس عليه واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شأن ؛ لما فيه من انتفاء الريب .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه . ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الأهواء واتحاد النفوس ، واجعل أشد ما نجتمع عليه إيثار مصلحة المسلمين على كل شىء فى كل شىء من أمر دنياهم وآخرتهم .

هرون الرشـــيد

هو هرون الرشيد، وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أباموسى) ابن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

تولى الخلافة بعهد من أبيه المهدى عند موت أخيه الهادى ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سـنة سبعين ومائة . هذه الليلة من أعجب الليالى : تولى فيها الرشيد الخلافة ، وولد فيها له عبد الله المأمون ، ومات فيها أخوه الهـادى . وليس فى ليالى الزمن المعروفة ليلة تمخضت عن موت خليفة ، وقيام خليفة ، وولادة خليفة غيرها . فإن كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل :

الليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

— فهذه الليلة من تلك الليالى .

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر . قال: رأى الرشيد فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع وستين ومائة فقال له : إن هذا الأمر صائر إليك فاغز ، وحج ، ووسع على أهل الحرمين . فقام غازيا أطراف الروم وغنم ، وانصرف فى شـعبان فحج بالناس فى الموسم ، وفرق على أهـل الحرمين مالا كثيرا ، وصدق الله الرؤيا ، وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها .

كانت ولادة الرشـيد بالرى فى أواخر ذى الحجة سـنة خمس وأربعين ومائة ، وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت

أم الفضل الرشيد ، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وكان أبوه المهدى فى تلك الأيام وما بعدها أميرا على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما .

هـذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها : فى عدلها وحلمها وإنصافها وإقامة عماد دولتها ، وإظهار شأنها ، وحماية ناموسها . وحاطها بأنواع الأسباب التى تدفع عنها المكاره . هو الذى مثل البذخ والترف والمجد والشرف ، والأبهة والعز والعظمة والسودد ، والنعيم المقيم الذى جمع دواعى المتع الدنيوية والفوائد الأخروية . وهو الذى اجتمع له فى خلافتـه ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبى حفصة ، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل :

إن المكارم والمعروف أودية أحله الله منها حيث تجتمع

كان أمير الخلفاء ، وأجل ملوك الدنيـا ، وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة إلا سنين قليلة ، فإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة ، والكسوة الباهرة . قال الشاعر :

فمن يطلب لقـاءك أو يرده ففى الحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العـدو على طمتر وفى البـلد المحـرم فوق كور

كان مفردا فى تعظيم حرمات الإسـلام ، والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ ، محبا للعلم وأهله ، مبغضا الرياء فى الدين ، والمعـارضة فى النص .

كان الرشيد أبيض طويلا جميلا مليحا فصيحا ، له النظر النافذ فى العلم والأدب ، كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركها إلا لعلة . وله صدقات من صلب ماله تزيد على ألف درهم فى كل يوم . وكان له تواضع فى شرفه أشرف من الشرف : فمن أحسنه وما (أحسن شىء كله حسن !) — ماحدث به أبو معاوية الضرير ، قال : أكلت مع الرشيد ، ثم صب على يدى الماء رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : يا أبا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يدك؟ فقلت : لا . ياأمير المؤمنين . قال : أنا . فقلت : ياأمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال : نعم . وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم : ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا الرشيد ؛ فإنه رحل بولديه : الأمين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك رحمه الله ، ثم رحل لسماعه أيضا مقتديا به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الإسكندرية ، فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا يعلم غيرهما أحد . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى (خزانة المصريين) .

كان مولعا باحترام العلماء : فمن فضائله فيه أنه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله ، وأمر الأعيان والأمراء أن يعزوه .

كان بكّاء على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه ولا سيما إذا وعظ ، ولم يرأغزر دمعا منه عند الذكر ، ولم يذكر له النبى إلا قال : صلى الله على سيدى .

دخل عليه ابن السماك يوما — وكان يعظه — فاستسقى الرشيد ، فأتى له بماء فقال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين ؛ لو منعت هذه الشربة بكم

تشتريها ؟ قال : بنصف ملكى ، قال : اشرب هنأك الله بها . فلما شربها قال : أسألك : لو منعت خروجها بماذا تشترى خروجها ؟ قال : بملكى . قال : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه . فبكى الرشيد . وقال يوما لشيبان : عظنى . قال : لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لى هذا . قال : من يقول لك : إنك مسئول عن الرعية فاتق الله — أنصح لك ممن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

كان كأنه جده المنصور هيبة وصلابة فى الملك ، وجبروتا وشدة مع الحق ، كثير الكراهة للباطل ، متتبعا للزنادقة طالبا لهم ، وكان القول بخلق القرآن شائعا فى عهده ، فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء ، حتى يقتص منه أشد القصاص .

كان شديد الاقتفاء لأعمال جده ، متطلبا للعمل بآثاره ومحاكاته فى أعماله ، وصيانة سرير ملكه ، وحفظ أبهته وزيه . فلم يختلف عنه فى شىء إلا فى البذل والنوال ؛ لأنه لم ير خليفة بذل ما بذله الرشيد فى العطايا من مال وخلع ؛ فكانت صلته تصل ما بين الإنسان وبين الغِنَى ، وتقطع ما بينه وبين الفقر والاحتياج .

ولى الخلافة بعد ما تنقل فى مهام أمورها ؛ فقد استعمله أبوه المهدى فى الأعمال وروّضه عليها ، فجهزه مرارا للغزو بالصائفة ، والإيغال فى بلاد الروم . وفى سنة ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله ، وأذربيجان وإرمينية ، وجعل كاتبه ثابت بن موسى ، وعلى رسائله يحيى بن خالد ، فنشأ خير نشء وظهر بخير مظهر .

كان فى غرضه أن يوصل ما بين بحر الروم و بحر القُلْزُم ، مما يلى الفَرَمَا (أى أن يفتح قناة السويس) فشاور وزيره يحيى ، وفكرا طويلا فانكشف لهما توغل الروم ، فخافا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم ، وقربهم من الأراضى المقدسة فنزعا عن هذا الفكر .

هـذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم فلا يتورطون فى أمور لا قبل لهم بها ، ولا يغررون بأنفسهم ؛ لأنهم يعلمون معنى المسئولية التى تحيط بمركزهم ، فلا يقدمون على شىء إلا ولهم منه مخرج . ولو كان للناس وزير كيحيى لخفف من هـذا البلاء النازل ، أو حدّه ، أو تلطف فلطف من قضائه المبرم ، وعاق امتـداد الأيدى الأجنبية عن العبث فى هذه النواحى بدعوى الاستعمار الذى جاز حده فى البحار والقفار .

ازدهى عصره بين الأعصار بوجود كثير من العلمـاء الأعلام فيـه : كالإمام مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، والنسائى ، ومحمد بن الحسن من كبار أصحـاب أبى حنيفة ، وصعصعة بن سلام عالم الأندلس وغيرهم . وهـذا أيضا من سعة رزق خلافته ، و إرادة الله سبحانه وتعـالى له الخير ببطانة الخير ، والفلاح والنجاح الذين يتأسى بهم فى كل صلاح .

نقل شيئا كثيرا من عادات الفرس : منهـا الكرة والصولجان ، ورمى النشاب فى البرجاس ، والشطرنج ، وجعل لكل شىء قاعدة ومرتبـة ، حتى المغنين فإنه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها .

كانت بغداد فى عصره نادرة الدنيـا ، وعروس المدائن ، فريدة فى حضارتها وعمارتها ، ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا

ذلك (فى النبذة التاريخية) : فأيامها أعياد ، ولياليها أعراس ، وسلطانه الممتد سياجه عليها قد عظم من قدرها ، ونبه من ذكرها ، وهو بمـا أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العدل والمساواة — دعا الناس بلسان الأمن والأمان إلى المبادرة إليها بالمتـاجر والعروض ، فتناهوا فى الطلب والإقدام على العمل بعلو الهمة ، وجلس للنـاس فى منصة عدله ، وعمهم برحمتـه ، فشمل القوى والضعيف ، والعاجز والعليل ، وذوى الحاجات ومن لاوسيلة لهم ، فأزاح عن جميعهم العلل وأبطل الأهواء ، وحجز بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب .

أما غزوه وفتحه وحجه وفديته — فكثير : منه أنه فى سنة إحدى وسبعين ومائة حارب (الصحصح) الخارجى بالجزيرة وقتله . وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة ، وحج بالناس ، وأحرم من بغداد . وفى سنة أربع وسبعين حج بالناس وقسم مالا كثيرا ، وفى سنة ست وسبعين ومائة عقـد لابنه محمد ولاية العهد ولقبه (الأمين) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين ، ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة مدينة (دَلَايَة) على يد الأمير عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح العباسى ، وفى سنة إحدى وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حِصْنَ الصَّفْصَاف ، وغزا عبد الملك بن صالح أرض الروم و بلغ أَنْقِرَة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر ، و بايع لولده عبد الله بولاية العهد بعد الأمين ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، ولقبه (المأمون) وسلمه إلى جعفر بن يحيى . وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ما جرب عواقبه فى نفسه ، ورأى ما صنعه أبوه وجده بعيسى بن موسى ، حتى خلع نفسه من ولاية العهـد ، و بعد

ما صنعه أخوه الهادى معه لخلعه من العهد، وتولية ابنه جعفر ولو لم يعاجله الموت لفعل . ولكن نفذ قدر ، وضاع حذر .

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة ، وسار إلى مكة من الأنبار ، وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية : عطاؤه ، وعطاء الأمين ، وعطاء المأمون . ثم سار إلى مكة فأعطى أهلها أيضا ، وولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ، والمأمون همذان إلى آخر المشرق ، وبايع ابنه (القاسم) بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) ، وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم وكتب كتابين بالإشهاد ، وعلقهما فى الكعبة فقال الناس : قد ألقى بينهم شرا وحربا . وخافوا العاقبة ، وكان ما خافوه .

وفى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (ريخى) ملكة الروم ، فكتب للرشيد كتابا يقول فيه : أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وإلا فالسيف بينى وبينك . فلما قرأ الرشيد كتابه كتب إليه : قد قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع وسار ليومه ولم يزل حتى نازله ، ووصل إلى مدينة هرقلة بالغزوة المشهورة ، ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه .

وفى هذه السنة كانت تمت للبرامكة مشاركتهم للرشيد فى سلطانه ، وعظم فى نظر الناس ما لهم من الآثار وبعد الصيت ، وكثر ما اختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها ، وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابة ، وسيف وقلم ، واقتصرت عليهم الآمال ، وتخطت

إليهم من أقصى التخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الأمراء ، واستجار بهم العانى والمعدم والمذنب فأجاروه ، فأهاجوا بذلك كامن الغيرة ، وسلطوا عليهم بأس الانتقام ، ومكنوا منهم جماعة الحساد والدهر حرب للقام العالى ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم أسوة ، ولمن بعدهم عبرة كانت دليلا جديدا على أن الدنيا دول ، والمال عارية . نكبة أمسكت لسان المادح ، وقطعت لسان الحاسد ، وبكاها الولى والمولى ، والعدو والجاحد . نكبة استراحت بعدها الوراد من قطع الفدافد سعيا ، وأقسم الجود ألا يحيا بعد يحيى : " إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " .

ثم فادى الرشيد فى سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم ، حتى لم يبق فى الأسر مسلم ، وهو أول فداء كان لبنى العباس . وفى سنة تسعين ومائة فتح (هرقلة) وبث جيوشه بأرض الروم ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ، وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو خراسان للغزو ، فوصل (طوس) فمرض بها ، ومات فى ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة رحمه الله ! وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتجيه القائم على أمة ، شهيد الغربة ، شهيد الجهاد ، فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء ، تسبح فى ملكوت الله فى أعلى عليين . ثم أخذ رجاء الخادم البرد والقضيب والخاتم ، وسار على البريد فى اثنى عشر يوما من (مرو) حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ، ودفع ذلك للأمين :

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام